اليهودية، في المجتمع العربي الاسلامي، فقدوا خاصية الحدودية هذه؛ فقد كانوا في صميم المجتمع العربي في الاندلس.

وعلى كل، مهما كان الامر، فان صفة الحدودية لم تتجذر وتتبلور الا داخل التشكيل الحضاري الغربي. ومما قد يكون له دلالته، وطرافته، أن أول وجود لاعضاء الطوائف اليهودية داخل القارة الاوروبية كان في روما، العاصمة الامبريالية، ثم في كولون، وهي معسكر روماني أسس في تلك المنطقة التي تتحكم في وادي الراين (واسمها يعود الى كلمة «ممتعمره» اللاتينية، وقد اشتقت كلمة «كولونياليه» أو «الاستعمار» من الاصل نفسه). وقد أصبحت كولون، بسبب موقعها المتميز، مركزا لواحد من أهم الاسواق في اوروبا. ويمكن القول ان خاصية الحدودية كانت خاصية جنينية، تظهر وتختفي، داخل القارة الاوروبية، وخارجها. ولم تصبح خاصية عامة، وأساسية، وثابتة، للطوائف اليهودية في اوروبا، الا بحلول العصور الوسطى الغربية.

ولعل هذا يعود الى تركيب المجتمع الاقطاعي المسيحي ذاته. فهو مجتمع كان يستند الى التضامن المسيحي دون أن يحدد وضع الاقليات غير المسيحية، مما جعل اليهود (وغيرهم) غرباء، فضلاً عن أنه كان مجتمعاً يضم، اساساً، النبلاء والفرسان، من جهة، والفلاحين، من جهة أخرى، تفصل بينهم هوة لم يكن في وسع التجار المحليين ملؤها، وقد قام اليهود بملء هذه الشقوق والفراغات، وتوسيعها، بحيث اصبحوا الطبقة الوسيطة الاساسية في اوروبا، في العصر الوسيط. والطبقات الوسيطة عادة ما تتكوّن من أقلية أثنية تقوم بمهام التجارة والربا وغيرها من المهام التي لا تقوم بها الطبقات الاساسية في المجتمع.

وينبغي التنبيه الى أن اليهود، كطبقة وسيطة، كانوا يقومون بما يسمى التجارة البدائية، وهي نشاط اقتصادي ليس في صميم العملية الانتاجية، ولذا، فهو نشاط حدودي؛ فالتاجر البدائي ينقل السلع من مجتمع الى آخر، فهو يحضر السلع الترفيّة من الشرق، على سبيل المثال، الى المجتمع الاقطاعي الغربي، ويأخذ منه العبيد والفراء؛ فهو لا ينتمي الى هذا العالم، ولا الى ذاك. وقد وضع ماركس يده على هذه الخاصية، حينما قال ان اليهود يعيشون في «مسام» المجتمع الاقطاعي، أي على حدوده. ولم يكن النشاط الربوي اليهودي مختلفاً؛ فالمرابون اليهود كانوا يقفون، في واقع الامر، على الحدود، بين الامير الاقطاعي (شيخ المرابين، كما كان يدعى) والفلاحين وغيرهم؛ اذ كان اليهود يمتصون ثروات الفلاحين، ثم يقوم الامير، بدوره، بامتصاصهم؛ ومن هنا كان يطلق عليهم «الاسفنجة».

ويلاحظ، كذلك، ان من أهم وظائف الطبقة الوسيطة أنها تقوم باكتشاف مجالات الاستثمار الخفية ؛ كما تقوم بدور ريادي في الاراضي غير المأهولة وفي المشاريع الخطرة، باعتبار أن الاشكال التقليدية للاستثمار موصدة دونهم ؛ كما أن العناصر الوسيطة عناصر أكثر حركة وديناميةً، لأنها لا تقع تحت طائلة القوانين الاقطاعية الصارمة . واليهود، لكونهم طبقة وسيطة (كتجار ومرابين ورواد)، يقعون خارج المجتمع، وخارج هيكله القانوني، وعلى حدوده.

الشعب الشاهد

وقد عمّق من حدودية اليهود بعض الافكار الدينية المألوفة في الحضارة الغربية، اولها هو فكرة الشعب الشاهد (الكاثوليكية) التي ترى ضرورة الحفاظ على اليهود في حالة ضعة ومذلة، لأنهم، بذلك، يقفون شاهداً على عظمة الكنيسة. فالشعب الشاهد، باعتباره شاهداً، يجب أن يقف على الحدود